وكان قد خبر من أحوال المرأة والرجل ما أقنعه أن الخيانة بينهما ليست من الصعوبة والامتناع بحيث يتوهمان، فما من رجلٍ كبر أو صغر إلا والمرأة واجدة بديلًا منه يغنيها عنه في جميع نواحيه أو بعض نواحيه. إن كان محبوبًا ففي الرجال مَن هو أَحَبُّ، وإن كان مهيبًا ففي الرجال مَن هو أهيب، وإن كان جميلًا أو سريًّا أو قويًّا ففي الرجال مَن هو أجمل وأسرى وأقوى، ولقد تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، فليس من الضروري أن تفاضل المرأة بين الحسن والصالح والأصلح، وليس من الضروري — إن هي فاضلت — أن تكون مختارة مفتوحة العينين فيما تدع وفيما تأخذ، فقد تكون مخدوعة مسوقة ثم تستنيم إلى الخديعة، وقد تؤثر الرجل على الرجل شهوة طريق، كما يذهب الإنسان إلى غدائه فيلقاه مطعم يفعم أنفه ببعض روائحه، فيميل إليه وقد يعافه في غير تلك الساعة.

وكان همام يعتقد أن الغش عند المرأة كالعظمة عند فصائل الكلاب، يعضضها الكلب المدلل ويدخرها حيث يعود إليها وإن شبع جوفه من اللبن واللحم والأغذية المشتهاة؛ لأن ألوفًا من السنين قد ربت أسنانه وفكَّيه على قضم العظام وعرقها، فهو يطلبها ليجهد أسنانه وفكَّيه في القضم والعرق ولو لَمْ تكن به حاجة إلى أكلها.

وألوف من السنين قد غبرت على المرأة وهي تخاف وتحتال وتراوغ وترائي وتلعب بمواطن الضعف في الرجل، حتى أصبح بعض النساء ممَّن قويت فيهن عناصر الوراثة وبرزت في طباعهن عقابيل الرجعة ينشدن الغش التذاذًا به وشحذًا للأسنان القديمة التي نبتت عليه. ويسرُّهن أن يصنعن الشيء ويخفينه ولو لَمْ تكن بهن حاجة إلى صنعه ولا اخفائه؛ لأن المرأة من هؤلاء تشتهي العظمة بجوع عشرين ألف سنة، وتشتهي اللحم واللبن بجوع ساعات.

ولقد عرف همام سارة، فلماذا لا يعرفها غيره؟ ولِمَ يصعب عليه أن ينال عطفها، فلماذا يصعب على غيره أن يناله؟

إنه لَمْ يكن يستبعد الغش والخيانة، وليس بين الشيء الذي لا يستبعد والشيء الذي يُتوقع إلا خطوة وعلامة محسوسة، على أن الإنسان قد يتوقع الغش لفرط إشفاقه من الفقد والخسارة لا لفرط اتهامه وسوء ظنه.

فالخزانة التي تتركها فارغة هي بعينها الخزانة التي تملؤها بالذهب والفضة والجواهر الثمينة، لكنك تخشى على متانتها وهي حافلة عامرة ولا تخشى على متانتها وهي فارغة منسية.